كيف نثقف أنفسنا ؟

برنامج للدارسة الذاتية

لم يكن الفرق بين الجاهل والعالم قبل ألف أو ألفى سنة عظيما ، لأن المعارف الانسانية لم تكن قد تجمعت الى الحد الذى يميز تمييزا كبيرا بين من يعرفها ومن يجهلها ، وكذلك لم تكن هذه المعارف قد انتظمت علوما مدروسة تقوم على التجربة . فهى حتى حين تجمعت كانت خليطا أشبه الأشياء بالمواد الخامة : لم تصهر ولم تسبك لتصير آلات نافعة . ولكن هـذه المعارف فى عصرنا قد تجمعت وانتظمت حتى صار منها ما يزيد على مائة علم ، لكل علم معارفه وقواعده . فالفرق عظيم لهذا السبب بين الجاهل والعالم . بحيث يمكن أن يقول الانسان إن الفرق بينهما أحيانا هـو فرق بين الانسانية قبل ٤٠٠٠ سـنة و بينها الآن . فالذى يريد أن يعيش فى عصرنا الحاضر يجب أن يثقف نفسه بثقافة هذا العصر .

ثم هناك ضرورة أخرى تقضى علينا بأن نثقف أنفسنا . وذلك أن العـالم قد تقارب وتشابك بحيث أصبحنا لا نفهمه فهما ابتدائيـا — ولا نقول مثقفا — إلا مع الدرس . وليس من المبالغة أن نقول إن العالم ليس مدينة واحدة بل هو قرية واحدة يتسمع أحد سكانها لكلام الآخرين بل لهمسهم . فإنى أسكن فى القاهرة شارعا ما ، فلا أكاد أسمع البائع المنادى فى الشارع المجـاور ، ولكنى أفتح الراديو فون فأسمع الحديث فى لندن أو باريس . والجريدة اليومية تنبئنى كل يوم الى ما حدث فى بكين أو نيو يورك أو مدينة الكاب .

بل وأنا قاعد الى المـائدة أتناول الغداء قد آكل الرز اليـابانى وأشرب قهوة برازيل بأدوات من الخزف المصـنوع فى تشيكوسلوفاكيا . وقد يكون بعض ملابسى مصنوعا فى اليابان أو ايطاليا ، والورق الذى أكتب عليه قد جاءنا من فنلندا ، والقلم الذى أكتب به من انجلترا .

ومع هذا التقرب بين الأمم أو مع هذا الاشتباك لم تتبسط مسائل العالم بل تعقدت . والأصل فى هذا التعقد أن العلوم الجديدة تصطدم بالتقاليد السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وهذا الاصطدام إما أنه يؤدى الى تطور وإما الى انقلاب . بل إن كلمة " تطور " ما كانت

تدل على معنى لولا كتاب داروين الذى ألفه سنة ١٨٥٩ والذى أصبح أثره فى الثقافة والحضارة معا لا حد له ، ويمكن ان نصف هذه اللفظة بأنها محورية فى الرقى البشرى . وهذه العلوم الجديدة تنظم وتنسق المعارف وتوجه التفكير الى غايات وأهداف لم تكن موضوع اهتمامه من قبل . فالعالم يعرف الطب منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ، ولكنه لم يعرف اليوجنية أى اصلاح النسل إلا منذ خمسين سنة . وعرف الايكولوجية والتحليل النفسى وغيرهما منذ أقل من هذه المدة . والايكولوجية هى درس الانسان أو الحى عامة باعتبار البيئة . وها هو ذا ولز الكاتب الانجليزى ينبه فى كتاب أخير له عن ضرورة "النظر الايكولوجى للمسائل الانسانية" أما التحليل النفسى فان وفاة فرويد قبل شهرين أو ثلاثة قد نبهتنا الى هذا العلم أو الفن الذى ابتدعه . وقد يقال إن هذه علوم لها معاملها والمتخصصون لها . ولكن ما من علم إلا وله أثره فى حياتنا الاجتماعية . ثم هناك المبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة التى لا يمكن أن نفهم النضال الأوربى القائم الآن إلا اذا درسناها . وحسبنا مثالا على ذلك حركة هتلر وحدها . فمن عجيب ما قرأنا حديثا مقال فى مجلة "كومون سنس" الأمريكية للكاتب المعروف بيتر فيريك يربط فيه بين الهتلرية وبين الألحان الموسيقية التى ابتدعها فاجنر . وقد ضربنا هذا المثل لا لغرابته ، ولكن لكى نبين التعقد والتشابك القائمين فى الثقافة العصرية ولنقول مرة أخرى إن الفرق عظيم جدا بين من يعرفهما ومن يجهلهما .

وليس شك فى أن هذا التعقد يحتاج إلى الاخصائيين . بل لقد بلغ من الكسيس كاريل العالم الأمريكى أن يقترح اختيار الأذكياء من الأطفال فى الخامسة أو السادسة من العمر وإرصادهم للدرس مدى حياتهم حتى يوفقوا بين هذه العلوم ويستخلصوا منها ثمرات تنفع فى إصلاح البشرية وحسن تطورها : رهبانية جديدة فى خدمة العلوم والاجتماع . ولكن لا يمكن الإصلاح إلا إذا كان كل فرد من أفراد الجمهور على شىء من الثقافة العصرية وعلى إلمام قليل أو كثير بهذه العلوم . فإن الإصلاح فى عصرنا وفى الأمم الديمقراطية لا يتم إلا برضى الشعب . فإذا كان أفراد هذا الشعب جهلاء فإن جهلهم يعطل ويؤخر ويعاكس جميع حركات الاصلاح .

ثم هناك هذه الشخصية الانسانية التى لا ترقى إلا إذا حصل صاحبها على مقدار من الثقافة العصرية . وأى شعور هذا الذى نشعر به حين نقرأ أن سيدة أمريكية بلغت الخمسين وتزوجت وأنسلت وترملت . ثم شرعت بعد هذه السن المتقدمة تلتحق بالجامعة وتدرس ما فاتها دراسته أيام الشباب . وهذه فلندا التى كنا ناسى لحالها فى الأشهر الأربعة الماضية تعرف جامعاتها الطلبة فى سن الخمسين والستين . وقد يحضر للدرس والد مع ابنه كلاهما طالب ينشد الثقافة .

ولكن الجامعات ليست متوافرة للجميع. والثقافة العصرية التى نحتاج إليها لكى نفهم عالمنا ليست مقصورة على الجامعات . فإن الكتاب الذى وصفه كارليل بأنه جامعة الشعب يقوم عند كثيرين من المتنبهين الراغبين فى الرقى الذهنى مقام الجامعة . بل هو أحيانا السبيل إلى التبريز والتفوق . وكثير من العلماء والأدباء والساسة مثل أديسون وداروين وبرناردشو وتولستوى وموسوليني وأتاتورك لم يتعلموا فى جامعة مع أن كلا منهم قد شق الخطط الجديدة فى التفكير والاصلاح . فيجب ألا يحتج أحدنا بأنه لم يحصل على تعليم جامعى ، وأن هذا الحرمان يبرر جهله أو ركونه إلى جهله . فما دامت فى العالم مطابع فإن تيار الثقافة لن ينقطع .

ولكن كيف نثقف أنفسنا عن سبيل الكتاب ؟

١ — إننا ننتمى إلى جامعة بشرية تضم نحو ألفى مليون من الآدميين قد ورثوا ثقافة عامة من جميع الأمم الماضية . وهم جميعا يرتبطون برباط بشرى. فيجب أن ندرس تاريخ هذه البشرية ، ما اهتدت اليه من اكتشاف وما تخبطت فيه من أخطاء ، وما عرفته من نظم سياسية واجتماعية وأخلاقية زمانا ومكانا أى تاريخيا وجغرافيا ، أى أننا ننظر إلى التاريخ البشرى تلك النظرة الايكولوجية التى تقابل وتربط بين البيئة والحى . وليس شىء فى الثقافة يجعل الانسان انسانيا مثل هذا التاريخ العام للبشر جميعهم ، فاننا نشعر عندئذ أن لنا وطنا هو العالم كله ، وأن جهاد الصين للحرية الآن هو جهادنا وأن ثورة أخناتون لهدم الأصنام هى ثورتنا . وأن فلسفة ارسطوطاليس هى بعض أدواتنا فى التفكير .

٢ — ثم نحن ننتمى إلى جامعة دينية لها الأثر العظيم فى مجتمعنا وبيئتنا وأخلاقنا ، فيجب على كل منا أن يدرس ديانته أصلا ويدرس غيرها فرعا للمقابلة والاستنارة والتوسع الذهنى . ولا يمكن أن يعد أحد نفسه مثقفا إذا كان يجهل ديانته وكتبها المقدسة فانه يعيش فى وسط منطبع بها قد أخذ دستوره الاخلاقى منها وانتظم مجتمعه على أسسها .

٣ — ثم نحن ننتمى بعد ذلك إلى جامعة وطنية . نحن أمة ترتبط باللغة والتقاليد والتاريخ والمحن . فيجب أن ندرس تاريخ وطننا ونحب العالم لأننا نحبه . ونفهم قواعد الاجتماع فى الأمم الأخرى لأننا نفهم اجتماعنا . ومهما يكن لنا من عواطف البر فاننا لن نجد المجال لممارستها فى أحسن من بلادنا التى لا يمكن أن نعرف بلادا أخرى خيرا مما نعرفها .

٤ — ونحن نعيش فى عصر يسيطر عليه العلم . بل إن هذه الأشهر القليلة الماضية قد أثبتت أن هذه السيطرة قد تكون تسلطا وحشيا ، ولذلك لا يمكن أحدنا أن يكون مثقفا يعيش فى عصره ويفهمه إلا إذا درس علما من العلوم . وعندئذ يستطيع أن يدرك روح العصر ، أى روح التجربة . وليس من الصعب أن يدرس أحدنا علما خاصا مثل الاقتصاديات . أو السيكلوجية أو البيولوجية أو التاريخ أو غيرها . بل إن هذه الدراسة العلمية تنظم سائر الدراسات .

٥ — وهناك من الوسائل ما يمكن أن نستعين به على الدرس ، فاننا مثلا فى غضون دراساتنا سنلتقى بكثير من المؤلفين . ولا بد أننا نؤثر واحدا على آخر . وهذا المؤلف الأثير عندنا يجب أن ندرسه بعناية خاصة أى أننا لا نترك له كلمة إلا ونقرأها ، بل لا نترك كلمة قيلت عنه إلا ونفتش عنها . ومثل هذا الدرس يجعلنا شركاء لهذا المؤلف فى تفكيره وتطوره الثقافى فكأننا قد عشنا حياته ومارسنا صعوباته ودرسنا عصره ، ولو شاء أحدنا أن يدرس تاريخ أوربا فى القرن الثامن عشر لكان حسبه من هذا الدرس أن يقرأ جميع مؤلفات فولتير وترجمته وما كتبه خصومه عنه ، وهو هنا لن ينتفع فقط بتاريخ عصره بل هو أيضا سينتفع بهذا التطور الذهنى الذى كان له أكبر الأثر فى المجتمع الأوربى . وكذلك الشأن فى أى مؤلف آخر . فاننا لكى نثقف أنفسنا الثقافة الحسنة يجب أن نختص — إلى جنب دراسات مختلفة — بدرس أحد المؤلفين درس الإحاطة .

٦ — ولكن لكى نحقق الثقافة التى ننشد يجب أن يكون لنا هدف نقصد اليه بحيث يكون كالنهر تجمع فيه مجارى دراساتنا ، فأنت مثلا لماذا تريد أن تثقف نفسك ؟

بالطبع وقبل كل شىء لكى تفهم عصرك وتنمى شخصيتك ، وهذا حسن . ولكن لكى يبقى اهتمامك حيا ولكى تجد كل يوم الحافز الملموس فى دمك وأعصابك يجب أن يكون لك هدف تشعر كل يوم أو كل عام أنك تقترب منه بالدراسة المستمرة . فيجب أن تختص بدراسة معينة لعلم أو أدب أو فن أو صناعة .

٧ — ولكن العلوم والفنون فى زماننا ليست راكدة ، بل هى فى حركة قد تكون تطورا . وأحيانا قد تكون انقلابا . فيجب لكى نبقى على دراية بهذا العلم أو الفن الذى ندرس أن نوالى قراءة كل ما يتعلق به فى الكتب وفى واحدى المجلات التى تعالجه . وليس فى العالم علم أو فن إلا وله مؤلفات ضخمة فى بحثه . ولكن له أيضا مجلات لا ينقطع صدورها وهى توالى درس الجديد ونقد القديم من الآراء التى تتصل به .

وللتلخيص ، نقول إن عصرنا يطالبنا بالدرس . وليس من الضرورى أن يكون هذا الدرس جامعيا . فإن الكتاب والمجلة طريقان سويان للدرس . وكل ما نحتاج إليه أن ننظم دراستنا من حيث تعيين ما ندرس . فإن كل رجل مثقف يجب أن يدرس التاريخ البشرى كما يدرس كتبه المقدسة وتاريخ وطنه . ثم عليه أن يختص بدرس أحد العلوم لكى يكتسب منه النظرة العلمية وروح التحقيق التجريبى . وهو يحسن كل الإحسان إذا اختص بالاحاطة بدرس أحد المؤلفين كما يحسن إذا داوم على قراءة مجلة جدية تعالج العلم أو الفن الذى قد تعلق به .

ولكن قد يقال هنا إن هـذا برنامج حسن وأننا نسلم بأن الكتاب هو جامعـة الشعب أو يجب أن يكون كذلك . فهل فى اللغـة العربية من الكتب ما يكفى لأن ننقف أنفسنا حتى نسير على هذا البرنامج الذى وصفنا دون أن نحتاج إلى تدريب الجامعة ؟

والجواب أننا مع الأسف لا نستطيع أن نقول ذلك . فان الكتاب فى اللغـة الانجليزية أوجد الأديب العظيم برنارد شو ، والمفكر الفيلسوف هربرت سبنسر . وليس الكتاب فى اللغة العربية مما يتيح التكشف لمثل هذه العبقرية . على أننا حين نطلب الثقافة لا نعنى أن نكون كلنا عبقريين . وحسبنا أن نستنير ونفهم عصرنا . وفى اللغة العربية من المؤلفات ومن المجلات ما يكفى للاستنارة العامة . وبدهى أن القـادر على درس إحدى اللغات الأوربية الحديثة يمتاز امتيازا بارزا على من يقتصر على العرفان باللغة العربية . ولكن يجب أن نطلب الممكن ونستغل هذا الممكن . فإذا كنا نجهل إحدى اللغات الأوربية فإن لدينا من المؤلفات العربية ما يجب أن نقبل عليه وندرسه .

من غرر الدرر

(لعلى بن أبى طالب)

— أقل ما يجب عليكم لله أن لا تستعينوا بنعمه على معاصيه .

— لو رأى العبد الأجل ومصيره لأبغض الامل وغروره .

— المسئول حر حتى يعد .

— العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة الغنى .

— يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلوم .

— ماء وجهك جامد يقطره السؤال ، فانظر عند من تقطره .

— أشد الذنوب ما استهان به صاحبه .

— للظالم ثلاث علامات : يظلم من فوقه بالمعصية ، ومن دونه بالغلبة ، ويظاهر القوم الظالمين .

— أكبر العيب أن تعيب على الناس ما فيك مثله .

— لا تظنن بكلمة خرجت من أحد سوءا وأنت تجد لها فى الخير محتملا .